الحلقة 13

معجزات الله التي أيد بها رسله

إعداد: هشام المنشاوي

قتل الطاغية جالوت بضربة قويّة واحدة بواسطة حجر

«الحديد» يلين كالماء.. في يد النبي داود

- حكومته كانت قويّة ومستعدّة دائمًا لمواجهة الأعداء بكل قوّة واقتدار
- كان رجلاً ذا قوة وقدرة في الحروب والعبادات والعلم والمعرفة وفي السياسة
- أنعم عليه الباري عزوجلّ بالكثير من النعم الظاهرية والباطنيّة
- إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر إلا أجابه

الان الله له الحديد

نبي الله داوود (عليه السلام) أحد كبار أنبياء بني إسرائيل وحاكمًا لدولة كبيرة، وقد ورد ذكر مقامه العالي في عدّة آيات بيّنات من القرآن الكريم، وكان يتمتّع بقوة جسدية مكّنته من أن يقتل الطاغية جالوت بضربة قويّة واحدة بواسطة حجر رماه من مقلاعه على جالوت، فأسقطه من فرسه مضرّجًا بدمه خلال إحدى المعارك، وقال البعض: إن الحجر مزّق صدر جالوت وخرج من ظهره.

أمّا من حيث قدرته السياسية، فقد كانت حكومته قويّة ومستعدّة دائمًا لمواجهة الأعداء، بكل قوّة واقتدار، حتى قيل أن الآلاف من جنده كانت تقف على أهبة الاستعداد من المساء حتى الصباح في أطراف محراب عبادته، ومن حيث قدرته الأخلاقية والمعنوية والعبادية، فإنه كان يقوم معظم الليل في عبادة الله، ويصوم نصف أيام السنة.

وأمّا من حيث النعم الإلهيّة، فقد أنعم عليه الباري عزّ وجلّ بالكثير من النعم الظاهرية والباطنيّة.

قصته وحياته

داوُود أو داؤود)، وتلفظ بالعبرية الحديثة: دافيد معناه "محبوب"، هو ثاني ملك على مملكة إسرائيل الموحدة (1011 ق.م. – 971 ق.م.) وأحد أنبياء بني إسرائيل بحسب المعتقد الإسلامي، إلا أنه في اليهودية يعتبر ملكًا وليس نبيًا جاء بعد إش–بوشيت (أو إشباعل)، الابن الرابع للملك شاول. يتم وصفه على أنه أحق وأنزه ملك من بين ملوك إسرائيل التاريخيين – ولكن ليس بلا خطأ – وأيضاً هو محارب ممتاز، وشاعر (ويعتبره التراث اليهودي والمسيحي مؤلف العديد من المزامير).

إجابة لرغبة داوُد لبناء معبد أو بيت لله، وعد الله داوُد أن عائلته الملكية سوف تعيش للأبد. ولذلك، يؤمن اليهود أن المسيح اليهودي سوف يكون من نسل داوُد المباشر، ويؤمن المسيحيون أن نسل يسوع المسيح يعود إلى داوُد لأن كلاً من مريم ويوسف يعود نسلهما إلى داوُد. طبيعة مُلكه كانت تحت خلاف ونقاش، رفض ودافع عنها العديد من باحثي التوراة الحديثين، ولكن حياة داوُد المكتوبة في التوراة العبري لا تزال مقبولة بصورة كبيرة بين اليهود والمسيحيين، وقصته أصبح له تمييز مركزي من قبل المجتمع الغربي. تم تدوين حياته وقصة ملكه في التوراة العبري في صموئيل 1 (إصحاح 16 فما بعد) وصموئيل 2، ملوك 1، ملوك 2. أخبار الأيام 1 تعطي قصص أخرى لداوُد متعلقة بقوائم وراثية وعائلية أخرى.

خلاصة الحديث

إنّ داوود كان رجلاً ذا قوة وقدرة في الحروب والعبادات والعلم والمعرفة وفي السياسة، وكان أيضًا صاحب نعمة كبيرة.

نعم الله على داوود: القرآن الكريم يشرح أنواعًا من تلك النعم، قال تعالى: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ. كذلك سخّرنا له مجاميع الطيور كي تسبّحَ الله معه وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً. فكل الطيور والجبال مسخّرة لداوود ومطيعة لأوامره، وتسبّح معه الباري عزّ وجلّ، وتعود إليه كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (1)(2).

ومع إن كل ذرّات الوجود تذكر الله وتسبّح بحمده، سواء أسبَّحَ داوود (عليه السلام) معها أو لم يسبِّح، ولكن الميزة التي خُصّ بها داوود هي أنه ما أن يرفع صوته ويبدأ التسبيح، إلاّ ويظهر ما كان خفيًا وكامنًا في الموجودات، وتتبدّل الهمهمة الباطنة إلى نغمة علنية منسجمة، كما ورد في الروايات من تسبيح الحصاة في يد الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله). وقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) عند ذكره لقصة داوود (إنه خرج يقرأ الزبور، وكان إذا قرأ الزبور ولا يبقى جبل ولا حجر ولا طائرًا إلا أجابه).

الفضيلة المعنوية

وبعد ذكر هذه الفضيلة المعنوية، يذكر القرآن فضيلة ماديّة أخرى فيقول: وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ(3).

يمكن القول بأن الله تعالى علّم داوود – إعجازًا – ما استطاع بواسطته تليين الحديد حتّى يمكنه من صنع أسلاك رقيقة وقويّة لنسج الدروع منها، أو أنه كان قبل داوود يستفاد من صفائح الحديد لصناعة الدروع والإفادة منها في الحروب، ممّا كان يسبّب حرجًا وإزعاجًا للمحاربين نتيجة ثقل الحديد من جهة، وعدم قابلية تلك الدروع للانحناء أو الالتواء حين ارتدائها، ولم يكن أحد قد استطاع حتى ذلك اليوم نسج الدروع من أسلاك الحديد الرفيعة المحكمة، ليكون لباسًا يمكن ارتداؤه بسهولة والإفادة من قابليته على التلّوي والانحناء مع حركة البدن برقّة وانسياب.

ولكن ظاهر القرآن يدلّل على أن ليونة الحديد تمّت لداوود بأمر إلهي، فما يمنع الذي أعطى لفرن النار خاصية إلانة الحديد، أن يعطي هذه الخاصية لداوود بشكل آخر.

إن الله أوحى إلى داوود: نعم العبد إلا أنك تأكل من بيت المال، فبكى داوود أربعين صباحًا، فألان الله له الحديد، وكان يعمل كل يوم درعًا فيبيعها بألف درهم فعمل ثلاثمائة وستّين درعًا فباعها بثلاثمائة وستين ألفًا فاستغنى عن بيت المال) (4).

على كل حال، فإن داوود وجّه هذه القدرة التي وهبها إيّاه الله في أفضل الطرق وهي صناعة وسائل الجهاد والدفاع ضدّ الأعداء، ولم يحاول الاستفادة منها في صناعة وسائل الحياة العادية، وعلاوة على الاستفادة من دخله منها في تصريف أمور حياته المعيشية البسيطة، فقد هيّأ جزءًا منه للإنفاق على المحتاجين. وفوق كل هذا فقد كان عمله بحدّ ذاته معجزة ارتبطت به.

وآخر نعمة إلهية أُنعمت على داوود هي تمكنّه من القضاء والحكم بصورة صحيحة وعادلة وَفَصْلَ الْخِطَابِ (5).

الامتحان الكبير

يبيّن القرآن المجيد أحداث قضيّة عرضت على داوود، ففي البداية يخاطب القرآن المجيد الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله): وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ. فرغم أن داوود (عليه السلام) كان محاطًا بأعداد كبيرة من الجند والحرس، إلا أن طرفي النزاع تمكّنا – من طريق غير مألوف – تسوّر جدران المحراب، والظهور أمام داوود (عليه السلام) فجأة، ففزع عند رؤيتهما، إذ دخلا عليه بدون استئذان ومن دون إعلام مسبق، وظن داوود أنهم يكّنون له السوء، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ.

إلاّ أنهما عمدا بسرعة إلى تطبيب نفسه وإسكان روعه، وقالا له: لا تخف نحن متخاصمان تجاوز أحدنا على الآخر قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ.

من المسلّم بهَ أن قلق وروع (داوود) قلّ بعض الشيء عندما وضّح الأخوان هدف مجيئهما إليه، ولكن بقي هناك سؤال واحد في ذهنه هو، إذا كنتما لا تكنّان السوء، فما هو الهدف من مجيئكما إليّ عن طريق غير مألوف؟

تقدّم أحدهما وطرح المشكلة على داوود، وقال: هذا أخي، يمتلك (99) نعجة، وأنا لا أمتلك إلاّ نعجة واحدة، وإنه يصرّ عليّ أن أعطيه نعجتي ليضمها إلى بقيّة نعاجه، وقد شدّد عليّ في القول وأغلظ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ.

وهنا التفت داوَودَ (عليه السّلام) إلى المدّعي قبل أن يستمع كلام الآخر وقال: من البديهي أنه ظلمك بطلبه ضمّ نعجتك إلى نعاجه قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ، فالظاهر أن طرفي الخصام اقتنعا بكلامَ داوود (عليه السلام) وغادرا المكان.

ولكن داوود غرق في التفكير بعد مغادرتهما، رغم أنه كان يعتقد أنه قضى بالعدل بين المتخاصمين، فلو كان الطرف الثاني مخالفًا لادّعاءات الطرف الأول – أي المدّعي – لكان قد اعترض عليه، إذن فسكوته هو خير دليل على أن القضية هي كما طرحها المدّعي.

ولكن آداب مجلس القضاء تفرض على داوود أن يتريّث في إصدار الأحكام ولا يتعجّل في إصدارها، وكان عليه أن يسأل الطرف الثاني أيضًا ثم يحكم بينهما، فلذا ندم كثيرًا على عمله هذا، وظنّ أنما فتنه الباري عزّ وجلّ بهذه الحادثة وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ. وهنا أدركته طبيعته، وهي أن أوّاب إذ طلب العفو والمغفرة من ربه وخرّ راكعًا تائبًا إلى الله العزيز الحكيم فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (7).

على أية حال، فاللّه سبحانه وتعالى شمل عبده داوود بلطفه وعفا عن زلّته من حيث ترك العمل بالأولى، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ. وإن له منزلة رفيعة عند الله وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ.

قصّة داوود

الذي وضّحه القرآن المجيد في هذا الشأن لا يتعدّى أن شخصين تسوّرا جدران محراب داوود (عليه السلام) ليحتكما عنده، وأنه فزع عند رؤيتهما، ثم استمع إلى أقوال المشتكي الذي قال: إنّ لأخيه (99) نعجة وله نعجة واحدة، وإن أخاه طلب منه ضمّ هذه النعجة إلى بقيّة نعاجه، فأعطى داوود (عليه السلام) الحق للمشتكي، واعتبر طلب الأخ ذلك من أخيه ظلمًا وطغيانًا، ثم ندم على حكمه هذا، وطلب من الله سبحانه وتعالى أن يعفو عنه ويغفر له، فعفا الله عنه وغفر له. وهنا تبرز مسألتان دقيقتان أيضًا: الأولى مسألة الامتحان، والثانية مسألة الاستغفار. القرآن الكريم لم يفصّل الحديث بشأن هاتين المسألتين، إلا أن الدلائل الموجودة في هذه الآيات والروايات الإسلامية الواردة بشأن تفسيرها تقول، إن داوود كان ذا علم واسع وذا مهارة فائقة في أمر القضاء، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يمتحنه، فلذا أوجد له مثل تلك الظروف غير الاعتيادية، كدخول الشخصين عليه من طريق غير اعتيادي وغير مألوف، إذ تسورا جدران محرابه، وابتلائه بالاستعجال في إصدار الحكم قبل الاستماع إلى أقوال الطرف الثاني، رغم أن حكمه كان عادلاً.

ورغم أنه انتبه بسرعة إلى زلّته، وأصلحها قبل مضيّ الوقت، ولكن مهما كان فإن العمل الذي قام به لا يليق بمقام النبوة الرفيع، ولهذا فإن استغفاره إنّما جاء لتركه العمل بالأولى، وإن الله شمله بعفوه ومغفرته.

والشاهد على هذا الكلام إضافة إلى ما ذكرناه قبل قليل – هو قوله سبحانه الذي يأتي مباشرة بعد تلك الآيات، والذي يخاطب داوود (عليه السلام): يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ (8). وهذا الكلام يبيّنَ أن زلّة داوَودَ كانتَ في كيفيّة قضائه وحكمه.

احتمل البعض أن تسبيحها كان توأمًا مع صوت ظاهري، مرافقًا لنوع من الإدراك والشعور الذي هو في باطن ذرّات العالم، وطبقًا لهذا الاحتمال، فإنّ كل موجودات العالم تتمتّع بنوع من العقل والشعور، وحينما تسمع صوت مناجاة هذا النبي الكبير ترددّ معه المناجاة، ليمتزج تسبيحها مع تسبيح داوود (عليه السلام). وما ذكر فيه غير مستبعد قياسًا بقدرة الله. فالمناجاة موجودة داخل جميع مخلوقات الكون، وترانيمها تتردّد على الدوام في بواطنها، وقد أظهرها الله سبحانه وتعالى لداوود (عليه السلام)، كما في الحصاة التي كانت تسبّح الله وهي في يد رسول الله (صلى الله عليه وآله).

3 – سبأ، 11

4 – صحيح أن بيت المال يؤمن مصارف الأشخاص الذين يقدّمون خدمة مجانية للأُمة، ويتحملّون الأعباء التي لا يتحملّها غيرهم، ولكن ما أروع أن يستطيع الإنسان تقديم هذه الخدمة، وتأمين معاشه – في حال الاستطاعة – من كد يمينه، وداوود (عليه السلام) أراد أن يكون ذلك العبد الممتاز.

5 – سورة ص، 20

6 – طرحت هذه الآيات بحث بسيط وواضح عن قضاء داوود، ونتيجة لتحريف وسوء تعبير بعض الجهلة فقد أُثيرت ضجّة عظيمة في أوساط المفّسرين، وكانت أمواج هذه الضجّة من القوّة بحيث جرفت معها بعض المفسّرين، وجعلتهم يحكمون بشيء غير مقبول، ويقولون ما لا يليق بهذا النبي الكبير.

وفي هذا المجال بعد الانتهاء من تفسير الآيات باختصار نتطرق إلى الآراء المختلفة التي قيلت بشأنها.

7 – سورة ص، 21–25

8 – سورة ص، 26

–9 التوراة والقصص الخرافية بشأن داوود:

الآن نتصفح كتاب التوراة لنشاهد ماذا ذكر فيه عن هذه الواقعة، لنعثر على الأساس الذي اعتمد عليه بعض المفسرين والجهلة وغير المطّلعين في تفسير هذه الآيات.

جاء في (التوراة) وفي الكتاب الثاني (اشموئيل) الإصحاح الحادي عشر من الجملة الثانية وحتى السابعة والعشرين: خلاصة هذه القصة إلى هنا تكون كالآتي: في إحدى الأيام صعد داوود إلى سطح القصر فوقعت عيناه على البيت المجاور فرأى امرأة عارية تغتسل، فأحبّها، وتمكّن بإحدى الطرق من جلبها إلى بيته، فاضطجع معها فحملت منه. وزوج هذه المرأة كان أحد الضّباط المشهورين في جيش داوود وكان طاهرًا نقيًا، قتله داوود (نعوذ بالله من هذا الكلام) بمؤامرة جبانة عندما بعثه إلى منطقة خطرة جدًا في ساحة الحرب، ثم تزّوج داوود زوجته. والآن نواصل سرد بقية القصة على لسان التوراة الحالي إذ جاء في الإصحاح الثاني عشر من كتاب صموئيل الثاني (أن الرب أرسل (ناثان) أحد أنبياء بني إسرائيل ومستشار داوود في نفس الوقت، وقال له: كان رجلان في مدينة واحدة، واحد منهما غني والآخر فقير، وكان للغني غنم وبقر كثيرة جدًا، وأمّا الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها وربّاها، فجاء ضيف إلى الرجل الغني فأبى أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيئ للضيف الذي جاء إليه فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيّأ لضيفه.

قوي في المعارك

قتل جالوت بضربة واحدة

جيوشه كانت قوية

يحكى انه كان قوي البنية

وهبه الله قوة جسدية كبيرة

مهنته كانت الحدادة فيصنع بها ما يشاء